"ألم العلم"
أو "جهد العلم"

الكلام عن ألم العلم وجهده، وما يلازم طالب العلم في طريقه من البداية إلى أن يلقى الله لهو أمر شديد حريٌ بطالب العلم أن يفهمه ويستوعبه قدر الإمكان.

وإشارتنا في هذا المقال تبنى على أصول متعددة، ولذا فهي متشعبة، إذ ليس الغرض منها النظر الدعوي الوعظي لجهد العلماء وبذلهم وقدر آلامهم لتحصيل هذا العلم العزيز الذي أمر الله نبيه ﷺ بالاستزادة منه.

ولكن النظر من حيث محاولة التفكر في نوع تقدير الله تعالى للذين اصطفاهم من دون الأنبياء، ومحاولة التأمل في حكمة الله تعالى في الربط بين آلام الأنبياء والعلماء على اختلاف العصور لأجل أن ينالوا مقام المصطفين عنده سبحانه.

وللتيسير سنجعل تلك المقدمات في نقاط..

فالمقدمة الأولى: هي أن الأنبياء والعلماء من بعدهم إلى قيام الساعة يشتركون في جنس الرسالة، وينقسمون من حيث نوع الاصطفاء لها إلى ثلاثة أقسام:

- الاصطفاء العام: وهم العلماء من بعد الأنبياء والرسل.
- الاصطفاء الخاص: وهم الأنبياء دون الرسل.
- واصطفاء خاصة الخاصة: وهم الرسل.

وأما المقدمة الثانية: فهي أن الاشتراك في جنس الرسالة موجب لنوع اشتراك في متعلقاتها، ومن هذه المتعلقات لوازم الدعوة والتحصيل من جهة الجهد والألم الملازم لطريق الدعوة، وقد يفهم هذا من سياق قول النبي ﷺ "إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً وإنما ورثوا العلم".

والمقدمة الثالثة: هي أن المنزلة الربانية مدارها على البذل، ولكنه بذل من نوع خاص، فليس مجرد التحصيل المعلوماتي موجب بنفسه للرفعة دون اقتران العمل بذلك؛ وقد يظهر المرء قليل العمل عند الناظرين، ويقترن بذلك عمل قلبي عظيم من وَجَلٍ ونحوه، أو يتداخل مع ذلك قرائن أُخر فترفع مقامه.

ومما يبين ذلك: دعوة نبي الله نوح عليه السلام استمرت ألف سنة إلا خمسين، ودعوة النبي ﷺ كانت ثلاثة وعشرين عاماً، ولكن لما اقترن بالعمل القليل -ظاهراً- أمورٌ أخر خاصة بالنبي ﷺ، كتقدمه في العلم بربه ونحو ذلك، كان العمل القليل -ظاهراً- أعظم في المجموع من فعل نبي الله نوح عليه السلام؛ وقد يزيد الاستيعاب لهذه النقطة بـ

"المقدمة الرابعة": ألا وهي فهم آلية تكفير الذنوب وأن تكفير الذنوب عند الله ليست على نسق واحد، ولا طريقة واحدة؛ فإن الناظر في هذه الآلية التي هي مبنية على حكمة الله ورحمته بخلقه فسيرى أموراً: -

- محبة الرب لعباده المصطفين بتخليصهم من ذنوبهم في الدنيا.

- قدر البلاء مبني على قدر تحمل العبد، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.
- استطاعة العبد لا تعني عدم تألمه.
- اختلاف أنواع البلاء باختلاف المكلفين.

وتظهر تفصيلات كثيرة بـ "المقدمة الخامسة": التي هي أن أكثر الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وما هذا إلا لسببين أساسيين:

- إرادة الله تعالى في تخليصهم من كل شائبة.
- قوة تحملهم وصبرهم على ما سينزل بهم.

إذ أن حكمة الله تقتضي أن العبد يبتلى على قدر صبره وتحمله، وكلاهما ليسا لازمين للعلم فقط، بل هما من العمل بالعلم، وهما التطبيق العملي لمعرفة الله تعالى على النحو الأكمل.

فكل من أنشأ عملاً هو نتاج علم صحيح كان بلاؤه مقارباً لعمله لا لعلمه، إذ بعض الناس يحصّل من نفس العلم المعلوماتي الكثير والكثير، ولكنه لا يقوى على كثير بلاء، وما هذا إلا لضعف عمله الواجب عليه لما حصل من العلم.

وآخرون قد يظهر علمهم المحصل قليلاً ولكن بلائهم أشد فيما يبدو من غيرهم، وما هذا إلا أن قدر العمل بعلمه يكاد يكون متقارباً لعلمه.

فنسبة العمل بالعلم نسبة فارقة في الحساب والبلاء في سنن الله تعالى....

وعلى هذه المقدمات والإشارات يمكن القول بأن الناظر في البلاء الواقع للعلماء هو من جنس الواقع للأنبياء لاشتراك الجميع في المقدمات السابقة، إلا أن بلاء الأنبياء أعظم وأقوى لما سبق.

ومما يلحظ أن كثيراً من ألم طلبة العلم المعاصرين يختلف في النوع والكيف عن بلاء وألم السابقين، وما هذا إلا لتخلف القدر الكبير من العمل عن العلم كما سبق.

وكذلك ترى عجباً في حكمة الله تعالى من حيث كون طريق العلم فيما مضى كان صعباً مثقلاً بالبذل والجهد، فنظرة واحدة عن كثب في تراجم العلماء من الصحابة إلى بداية القرن الحادي عشر الهجري ترى معاناة العلماء في التحصيل سفراً ومذاكرة وما يتعلق بذلك، بخلاف هذه العصور المتأخرة التي ظهرت فيها الدّعة والكسل والتخاذل.

فتجد أن الله إذا رأى في عبد خيراً من التزام العمل بما يقارب ما تعلم يصب عليه من أنواع البلاء صباً، حتى أن بعض الطلبة يشتكي الآلام حين المذاكرة، فتكثر عليه الأمراض العجيبة والشكاوى الكثيرة من الآلام المتنوعة حال التحصيل.

فهذا قد يكون نوعاً من رحمة الله بعباده الذين لم تفتح لهم أنواع المشقات والبلاءات التي وقعت لجنس العلماء قبلهم؛ وكأن الله يرحمهم بدفع البلاء لهم على سررهم وأرائكهم.

إذ أن طرق العلم قد سهلت عما مضى، ووصول المعلومة للمتعلم لم تصبح بتلك المشقة التي كانت عند السابقين.

ولذلك فإن الواجب على طلبة العلم في هذا الزمان إحسان النظر، والشكر لله على بلاءه مع نعمائه، فإنها قد تكون علامة على تكفير أكبر قدر من ذنوبهم التي لا تنفك عن نوع البشر والملازمة لهم كل بقدر حاله؛ فالمسارعة للتوبة مع الصبر على البلاء، والشكر على السراء ... تلك حال الكبار، جعلنا الله وإياكم من أهلها.

والله أعلم وصلى على النبي وصحبه وآله تسليماً مزيداً

السبت 4 جمادى الأولى 1445

18 تشرين الثاني (نوفمبر) 2023

محمود أبو حمْدة